الأستاذ المحقق
السيد محمد باقر الصدر

التشيع والإسلام

دار الغدير
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ص. ب ٦٤٣

التشيع والاسلام

الاستاذ المحقق السيد
محمد باقر الصدر



التشيع والإسلام

بحث كتبه سماحة المؤلف مقدمة لكتاب « تاريخ الشيعة الامامية وأسلافهم » . تأليف الدكتور عبدالله فياض

دار الغدير
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ص . ب ٦٤٣

الطبعة الرابعة

١٣٩٣هـ – ١٩٧٣ م



المقدمة

هل التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي ؟

وهل أن القطاع الشيعي في جسم الأمة الاسلامية تكون على مر الزمن نتيجة لاحداث وتطورات اجتماعية معينة ...؟

ثم ...

كيف ولد التشيع ؟

وكيف وجد الشيعة ؟

أسئلة واقعية وهادفة ربما يتوقف عندها أي انسان يبحث عن الحقيقة بتجرد وموضوعية .. وتستوقف أي باحث يحاول بجدية أن يتعرف على واقع التشيع واصالة فكرته وانها ليست

ظاهرة فكرية طارئة في مجتمعنا الاسلامي .. بل بناءها يرتبط بأسس ثابتة ومتينة تعتمد على واقعية الاسلام واصالة مبادئه ..

وعندما نريد أن نحصل على اجابة هادئة ومعمقة فما علينا الا أن نعيش مع هذه الصفحات في بحث موضوعي فريد يعطينا الفكرة الواضحة ذات العمق الدلالي عن حقيقة التشيع واصالة منطلقه .. ومبدأ للضباب الذي حاول اثارته بعض الباحثين قديماً وحديثاً لتشويش الصورة الواقعية للتشيع واعطائه صفة الظاهرة الطارئة .. التي كانت نتيجة أحداث وتطورات اجتماعية وسياسية معينة .

ويكفي في قيمة هذا البحث، أنه نتاج أحد أعمق المفكرين الاسلاميين الذي عرفته أوساط الفكر الاسلامي بابحاثه المعمقة وأفكاره الرائدة .. وهو ما يستدعي القارىء أن يقف عند كل نقطة من نقاط البحث محاولاً النفوذ الى عمقها الذي ترتبط به ..

وحسب دار الغدير فخراً ان تصرف جهدها الكبير في سبيل نشر مثل هذه الابحاث الرائعة ..

والدراسات المعمقة لقضايا الفكر الاسلامي ومشاكله ..

ولا تبتغي من وراء ذلك الا خدمة الاسلام والانتصار للحق ..

دار الغدير

المؤلف في سطور

- سماحة آية الله السيد محمد باقر الصدر .
- في أوائل العقد الخامس من حياته .
- من الشخصيات العلمية الكبيرة في العراق .
- من مشاهير اساتذة البحث الخارج في جامعة النجف. ويؤدي دروسه في جامع الشيخ الطوسي – زعيم الجامعة النجفية ومؤسسها – .
- من أسرة عريقة بالعراق اشتهرت بالعلماء والشخصيات الاجتماعية والسياسية .
- له مؤلفات عديدة مطبوعة ابرزها :

١ – فلسفتنا .

٢ – اقتصادنا جزآن .

٣ – البنك اللاربوي في الاسلام .

٤ – المعالم الجديدة في الاصول .

٥ – بحوث في شرح العروة الوثقى – فقه .

٦ – الاسس المنطقية للإستقراء .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

جرى بعض الباحثين المحدثين ، على دراسة التشيع بوصفه ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي ، والنظر الى القطاع الشيعي في جسم الأمة الاسلامية بوصفه قطاعاً تكوّن على مر الزمن، نتيجة لأحداث وتطورات اجتماعية معينة أدّت الى تكوين فكري ومذهبي خاص بجزء من ذلك الجسم الكبير ثم اتسع الجزء بالتدريج .

وهؤلاء الباحثون بعد أن يفترضوا ذلك ، يختلفون في تلك الأحداث والتطورات التي أدت الى نشوء تلك الظاهرة وولادة ذلك الجزء .

فمنهم من يفترض أن عبدالله بن سبأ ونشاطه السياسي المزعوم هو الأساس لذلك التكتل الشيعي .

ومنهم من يرد ظاهرة التشيع الى عهد خلافة الامام علي عليه الصلاة والسلام ، وما هيأه ذلك العهد من مقام سياسي واجتماعي على مسرح الأحداث . ومنهم من يزعم أن ظهور الشيعة يكمن في أحداث متأخرة عن ذلك في التسلسل التاريخي للمجتمع الاسلامي .

والذي دعا فيما أظن كثيراً من هؤلاء الباحثين الى هذا الافتراض والاعتقاد : بأن التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي ، هو أن الشيعة لم يكونوا يمثلون في صدر الاسلام الا جزءاً ضئيلاً من مجموع الأمة الاسلامية .

فقد أوحت هذه الحقيقة شعوراً بأن اللاتشيع كان هو القاعدة في المجتمع الاسلامي ، وان التشيع هو الاستثناء والظاهرة الطارئة التي يجب اكتشاف أسبابها من خلال تطورات المعارضة للوضع السائد .

ولكن اتخاذ الكثرة العددية والضآلة النسبية ، أساساً لتمييز القاعدة والاستثناء أو الاصل والانشقاق ليس شيئاً منطقياً ؛ فمن الخطأ أعطاء الاسلام اللاشيعي صفة الاصالة على أساس الكثرة العددية ، واعطاء الاسلام الشيعي صفه الظاهرة الطارئة ومفهوم الانشقاق ، فان هذا لا يتفق مع طبيعة الانقسامات العقائدية .

اننا كثيراً ما نلاحظ انقساماً عقائدياً في اطار رسالةواحدة تقوم على أساس بعض الاختلاف في تحديد معالم تلك الرسالة وقد لا يكون القسمان العقائديان متكافئين من الناحية العددية .

ولكنهما متكافئان في أصالتهما ومعبران بدرجة واحدة

عن الرسالة المختلف بشأنها . ولا يجوز بحال من الاحوال أن نبني تصوراتنا عن الانفصال العقائدي داخل اطار الرسالة الاسلامية الى شيعة وغيرهم على الناحية العددية .

كما لا يجوز أيضاً ان نقرن ولادة الاطروحة الشيعية في اطار الرسالة الإسلامية بولادة كلمة « الشيعة » او «التشيع » كمصطلح واسم خاص لفرقة محددة من المسلمين ؛ لان ولادة الاسماء والمصطلحات شيء ونشوء المحتوى أو الاطروحة شيء آخر .

فاذا كنا لا نجد كلمة « الشيعة » في اللغة السائدة في حياة الرسول ص أو بعد وفاته ، فلا يعني هذا أن الاطروحة والاتجاه الشيعي لم تكن موجودة .

فبهذه الروح يجب أن نعالج قضية التشيع والشيعة ، ونجيب على السؤالين التاليين :

كيف ولد التشيع ؟.

وكيف وجد الشيعة ؟.



كيف ولد التشيع

أما فيما يتعلق بالسؤال الأول (كيف ولد التشيع ؟) فنحن نستطيع أن نعتبر التشيع نتيجة طبيعية للاسلام ، وممثلاً لاطروحة كان من المفروض للدعوة الاسلامية أن تتوصل إليها حفاظاً على نموها السليم .

ويمكننا أن نستنتج هذه الاطروحة استنتاجاً منطقياً من الدعوة التي كان الرسول الاعظم ص يتزعم قيادتها بحكم طبيعة تكوينها والظروف التي عاشتها ، فان النبي كان يباشر قيادة دعوة انقلابية ، ويمارس عملية تغيير شاملة للمجتمع وأعرافه وانظمته ومفاهيمه . ولم يكن الطريق قصير أمام عملية التغيير هذه ، بل كان طريقاً طويلاً وممتداً بامتداد الفواصل المعنوية الضخمة بين الجاهلية والاسلام ، فكان على الدعوة التي يمارسها النبي ان تبدأ بأنسان الجاهلية فتنشؤه انشاءاً جديداً ، وتجعل منه الانسان الاسلامي الذي يحمل النور الجديد وتجتث منه كل

جذور الجاهلية ورواسبها .

وقد خطا القائد الاعظم ص بعملية التغيير خطوات مدهشة في برهة قصيرة ، وكان على عملية التغيير أن تواصل طريقها الطويل حتى بعد وفاة النبي ص الذي أدرك منذ فترة قبل وفاته أن أجله قددنا ، وأعلن ذلك بوضوح في « حجة الوداع » ولم يفاجئه الموت مفاجئة .

وهذا يعني أنه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة بعده ، حتى اذا لم ندخل في الموقف عامل الاتصال الغيبي والرعاية الالهية للرسالة عن طريق الوحي . وفي هذا الضوء يمكننا أن نلاحظ ان النبي ص كان أمامه ثلاثة طرق بالامكان انتهاجها تجاه مستقبل الدعوة .

الطريق الأول

ان يقف من مستقبل الدعوة موقفاً سلبياً ، ويكتفي بممارسة دوره في قيادة الدعوة وتوجيهها فترة حياته ويتركها في مستقبلها للظروف والصدف .

وهـذه السلبية لا يمكن افتراضهـا في النبي ص ، لأنها انما تنشأ من احد أمرين كلاهما لا ينطبقان عليه :

(الأمر الاول) الاعتقاد بأن هذه السلبية والاهمال لا تؤثر على مستقبل الدعوة ، وان الأمـة التي سوف يخلف الدعوة قادرة على التصرف بالشكل الذي يحمي الدعـوة ويضمن عدم الانحراف .

وهذا الاعتقاد لا مبرر له من الواقع اطلاقاً ، بل ان طبيعـة الاشياء كانت تدل على خلافه ، لان الدعوة بحكم كونها عمـلاً

تغييرياً انقلابياً في بدايته ، يستهدف بناء أمة واستئصال كل الجذور الجاهلية منها، تتعرض لأكبر الاخطار اذا خلت الساحة من قائدها دون أي تخطيط ، فهنالك الاخطار التي تنبع عن طبيعة مواجهة الفراغ دون أي تخطيط سابق ، وعن الضرورة الآنية لاتخاذ موقف مرتجل في ظل الصدمة العظيمة بفقد النبي. فان الرسول اذا ترك الساحة دون تخطيط لمصير الدعوة فسوف تواجه الأمة ولأول مرة مسؤولية التصرف بدون قائدها تجاه أخطر مشاكل الدعوة ، وهي لا تملك أي مفهوم مسبق بهذا الصدد ، وسوف يتطلب منها الموقف تصرفاً سريعاً آنياً بالرغم من خطورة المشكلة لان الفراغ لا يمكن أن يستمر ، وسوف يكون هذا التصرف السريع في لحظة الصدمة التي تمنى بها الأمة ، وهي تشعر بفقدها لقائدها الكبير . هذه الصدمة التي تزعزع بطبيعتها سير التفكير وتبعث على الاضطراب، حتى أنها جعلت صحابياً معروفاً يعلن بفعل الصدمة ان النبي ص لم يمت ولن يموت .

وهناك الاخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي بدرجة النبي ص موضوعية التصرف الذي سوف يقع ، وانسجامه مع الاطار الرسالي للدعوة وتغلبه على التناقضات الكامنة التي كانت ولا تزال تعيش في زوايا نفوس المسلمين على أساس الانقسام الى : مهاجرين وأنصار ، أو قريش وسائر العرب ، أو

مكـة والمدينة .

وهناك الاخطار التي تنشأ لوجود القطاع المستتر بالاسلام والذي كان يكيد له في حياة النبي ص باستمرار ، وهـــو القطاع الذي كان يسميه القرآن « بالمنافقين » .

واذا أضفنا إليهم عدداً كبيراً ممن أسلم بعد الفتح استسلاماً للأمر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقـة ، نستطيع أن نقدر الخطر الذي يمكن لهذه العناصر أن تولده ، وهي تجـــد فجأة فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مع خلو الساحة من رعاية القائد .

فلم تكن اذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي ص شيئاً يمكن أن يخفى على أي قائـد مارس العمل العقائدي فضلاً عن خاتم الانبياء .

وإذا كان ابو بكر لم يشأ ان يترك الساحة دون أن يتدخل تدخلاً ايجابياً في ضمـــان مستقبل الحكم بحجة الاحتياط الأمر ..

واذا كان الناس قد هرعوا الى عمر حين ضرب قائلين « يا امير المؤمنين لو عهدت عهداً »[1] ، خوفـاً من الفراغ الذي يخلفه الخليفة ، بالرغـم من التركز السياسي والاجتماعي الذي كانت

---

١ ـ تاريخ الطبري : ٥ / ٢٦ .

الدعوة قد بلغته بعد عقد من وفاة الرسول ص ...

واذا كان عمر قد أوصى الى ستة تجاوباً مع شعور الآخرين بالخطر ...

واذا كان عمر يدرك بعمق خطورة الموقف في يوم السقيفة وما كان بالامكان ان تؤدي إليه خلافة ابي بكر بشكلهــا المرتجل من مضاعفات، اذ يقــول « ان بيعــة ابي بكر كانت فلتة غير أن الله وقى شرها »[1] ...

واذا كان ابو بكر نفسه يعتذر عن تسرعه الى قبول الحكم وتحمل المسؤولية الكبيرة بأنه شعر بخطورة الموقف وضرورة الاقدام السريـع على حلها اذ يقول: - وقد عوتب على السلطة - « ان رسول الله قبض والناس حديثو عهد بالجاهلية فخشيت أن يفتتنوا وان أصحابي حملونيها »[2] ...

اذا كان كل ذلك صحيحاً، فمن البديهي أيضا ان يكون رائد الدعوة ونبيها أكثر شعوراً بخطر السلبية، واكبر ادراكاً واعمق فهماً لطبيعة الموقف ومتطلبات العمـل التغييري

---

١ - تاريخ الطبري: ٣ / ٢٠ .

٢ - شرح النهج لابن ابي الحديد: ٦ / ٤٢ .

للذي يمارسه في أمـــة حديثة عهد بالجاهلية على حد تعبير ابي بكر .

(الأمر الثـاني) الذي يمكن ان يفسر سلبية القائد تجاه مستقبل الدعوة ومصيرها بعد وفاته ، انه بالرغم من شعوره بخطر هذه السلبية لا يحاول تحصين الدعوة ضد ذلك الخطر ، لأنه ينظر الى الدعوة نظرة مصلحيـة ، فلا يهمه الا أن يحافظ عليها ما دام حياً ليستفيد منهـا ويستمتع بمكاسبها ، ولا يعني بحماية مستقبلها بعد وفاته .

وهـذا التفسير لا يمكن أن يصدق على النبي ص ، حتى اذا لم نلاحظ بوصفه نبياً ومرتبطاً بالله سبحانه وتعـالى في كل ما يرتبط بالرسالة ، وافترضناه قائداً رسالياً كقادة الرساليين لا يملك نظيراً للقائد الرسول في اخلاصه لدعوته وتفانيه فيها وتضحيته من أجلها الى آخر لحظة من حياته ، وكل تاريخه يبرهن على ذلك . وقد كان ص على فراش الموت وقد ثقـل مرضه وهو يحمل همّ معركة كان قد خطـّط لها وجهّز جيش « أسامة » لخوضها ، فكان يقول: « جهّزوا جيش أسامه ، انفروا جيش أسامة ، أرسلوا بعث أسامة » ويكرّر ذلك ويغمى عليه بين الحين والحين [1] .

---

١ — تاريخ الكامل لابن الاثير وغيره.

فان اهتمام الرسول ص بقضية على قضايا الدعـــوة العسكرية يبلغ الى هـذه الدرجة وهو يجود بنفسه على فراش الموت ولا يمنعه علمه بأنه سيموت قبل أن يقطف ثمار تلك المعركة عن تبينه لهـا ؛ وان يكون همه الشاغل وهو يلفـظ أنفاسه الأخيرة ... فكيـف يمكــن أن نتصور ان النبي ص لا يعيش هموم مستقبل الدعوة ولا يخطط لسلامتها بعد وفاته من الاخطار المترقبة .

واخيراً ، فان في سلوك الرسول في مرضه الاخير رقماً واحداً يكفي لنفي الطريق الاول .

وللتدليل على أن القائـد الاعظم كان أبعد ما يكون عن فرضية الموقف السلبي تجاه مستقبل الدعوة وعدم الشعور بالخطر أو عدم الاهتمام بشأنه ، وهـذا الرقم اجمعت صحاح المسلمين جميعاً سنة وشيعة على نقله ، وهـو أن الرسول لما حضرته الوفاة وفي البيت رجـال فيهم عمر بن الخطاب قـال : « ايتوني بالكتف والدواة أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده ابداً »[1] .

فان هذه المحاولة من القائد الكريم المتفق على نقلها وصحتها؛

---

١ — مسند احمد : ١ / ٣٠٠ ، وصحيح مسلم : ج ٢ في آخر الوصايا ، وصحيح البخاري: ج ١ كتاب الصلح .

تدل بكل وضوح على انه كان يفكر في أخطـــار المستقبل ، ويدرك بعمق ضرورة التخطيط لتحصين الأمة من الانحراف ، وحماية الدعوة من التميـع والانهيار ، فليس من الممكن افتراض الموقف السلبي بحال من الاحوال .



الطريق الثـاني

أن يخطط الرسول القائـــد ص لمستقبل الدعوة بعد وفاته ويتخذ موقفاً ايجابياً ، فيجعل القيمومة على الدعـــوة وقيادة التجربة للأمة الممثلة على أساس نظام الشورى في جيلها العقائدي الاول، الذي يضم مجموع المهاجرين والانصار ، فهذا الجيل الممثل للامة هو الذي سيكون قاعدة للحكم ومحور قيادة الدعوة في خط نموها .

وهنا يلاحظ ان طبيعـة الأشياء والوضع العام الثابت عن الرسول ص والدعـوة والدعاة ، يدحض هـذه الفرضية وينفي أن يكون النبي قـد انتهج هذا الطريق واتجه الى ربط قيادة الدعوة بعده مباشرة بالأمة ، ممثلة في جيلها الطليعي من المهاجرين والانصار على أساس نظام الشورى .

وفيما يلي بعض النقاط التي توضح ذلك :

١ – لو كان النبي ص قد اتخذ من مستقبل الدعوة بعد موقفاً ايجابياً يستهدف وضع نظام الشورى موضع التطبيق بعد وفاته مباشرة واسناد زعامة الدعوة الى القيادة التي تنبثق عن هذا النظام ، لكان من أبده الاشياء التي يتطلبها هذا الموقف الايجابي أن يقوم الرسول القائد ص بعملية توعية للأمة والدعاة على نظام الشورى وحدوده وتفاصيله واعطائه طابعاً دينياً مقدساً ، واعداد المجتمع الاسلامي اعداداً فكرياً وروحياً لتقبل هذا النظام ، وهو مجتمع نشأ من مجموعة من العشائر لم تكن قد عاشت قبل الاسلام وضعاً سياسياً على أساس الشورى ، وانما كانت تعيش في الغالب وضع زعامات قبلية وعشائرية تتحكم فيها القوة والثروة وعامل الوراثة الى حد كبير .

ونستطيع بسهولة ان ندرك ان النبي ص لم يمارس عملية التوعية في نظام الشورى وتفاصيله التشريعية أو مفاهيمه الفكرية ، لان هذه العملية لو كانت قد انجزت لكان من الطبيعي أن تنعكس و تتجسد في الأحاديث المأثورة عن النبي ص أو في ذهنية الأمة ، أو على أقل تقدير في ذهنية الجيل الطليعي منها الذي يضم المهاجرين والانصار بوصفه هو

المكلف بتطبيق نظام الشورى ، مع اننا لا نجد في الاحاديث عن النبي ص أي صورة تشريعية محددة لنظام الشورى .

وأما ذهنية الأمة أو ذهنية الجيل الطليعي منها ، فلا نجد فيها أي ملامح أو انعكاسات محددة لتوعية من ذاك القبيل .

ونلاحظ بهذا الصدد للتأكد من ذلك ، أن أبا بكر حينما اشتدت به العلة، عهد الى عمر بن الخطاب، فأمر عثمان ان يكتب عهده ، فكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله الى المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم اني أحمد اليكم الله . أما بعد ، فاني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا » .

ودخل عليه عبد الرحمن بن عوف فقال : كيف أصبحت يا خليفة رسول الله ؟ فقال : أصبحت مولياً وقد زدتموني على ما بي ، ورأيتموني استعملت رجلاً منكم ، فكلكم قد أصبح ورماً أنفه ؛ وكل قد أصبح يطلبها لنفسه [1] .

وواضح من هذا الاستخلاف وهذا الاستنكار للمعارضة ان

---

١ – تاريخ اليعقوبي : ٢ / ١٢٦ – ١٢٧ .

الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشورى وأنه كان يرى من حقه تعيين الخليفة ، وأن هذا التعيين يفرض على المسلمين الطاعة ، ولهذا أمرهم بالسمع والطاعة ، فليس هو مجرد ترشيح أوتنبيه ، بل هو إلزام ونصب .

ونلاحظ أيضاً أن عمر رأى هو الآخر أن من حقه فرض الخليفة على المسلمين ، ففرضه في نطاق ستة أشخاص ؛ وأوكل أمر التعيين الى الستة أنفسهم دون أن يجعل لسائر المسلمين أي دور حقيقي في الانتخاب .

ان عقلية نظام الشورى لم تتمثل في طريقة الاستخلاف التي انتهجها عمر ، كما لم تتمثل في الطريقة التي سلكها الخليفة الأول، وقد قال عمر حين طلب منه الناس الاستخلاف : « لو أدركني أحد رجلين لجعلت هذا الأمر اليه لوثقت، به سالم مولى أبي حذيفة وأبي عبيدة الجراح ، ولو كان سالم حياً ما جعلتها شورى »[١] .

وقال أبو بكر لعبد الرحمن بن عوف وهو يناجيه على فراش الموت : « وددت لو أني كنت سألت رسول الله ص لمن هذا الأمر فلا ينازعه أحد »[٢] .

---

١ - طبقات ابن سعد: ٢٤٨/٣.

٢ - تاريخ الطبري : ٤ /٥٢ .

وحينما تجمع أنصار السقيفة لتأمير سعد بن عبادة قال منهم قائل : « ان ابت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ونحن عشيرته وأولياؤه ، قالت طائفة منهم : اذاً نقول منا أمير ومنكم امير لن نرضى بدون هذا أبداً » .

وحينما خطب ابو بكر فيهم قال : « كنا معاشر المسلمين والمهاجرين أول الناس اسلاماً ؛ والناس لنا في ذلك تبع ؛ ونحن عشيرة رسول الله واوسط العرب أنساباً » .

وحينما اقترح الانصار أن تكون الخلافة دورية بين المهاجرين والانصار ، رد ابو بكر قائلاً : ان رسول الله ص لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخالفوه وشاقوه ، وخص الله المهاجرين الاولين من قومه بتصديقه ، فهم أول من عبدالله في الأرض ، وهم أولياؤه وعترته واحق الناس بالامر بعده ، ولا ينازعهم فيه إلا ظالم .

وقال الحباب بن المنذر وهو يشجع الانصار على التمسك : « املكوا عليكم ايديكم ؛ انما الناس في فيئكم وظلكم ، فان ابي هؤلاء فمنا امير ومنهم امير » .

فرد عليه عمر قائلاً : هيهات، لا يجتمع سيفان في غمد، من

---

١ - تاريخ الطبري : ٤ / ٥٢ .

ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته الامدل بباطل او متجانف لاثم او متورط في هلكة»[1].

ان الطريقة التي مارسها الخليفة الاول والخليفة الثاني للاستخلاف، وعدم استنكار تلك الطريقة والروح العامة التي سادت على الجناحين المتنافسين من الجيل الطليعي المهاجرين والانصار يوم السقيفة، والاتجاه الواضح الذي بدا لدى المهاجرين نحو تقرير مبدأ انحصار السلطة بهم وعدم مشاركة الانصار في الحكم، والتأكيد على المبررات الوراثية التي تجعل من عشيرة النبي ص أولى العرب بميراثه، واستعداد كثير من الانصار، لتقبل فكرة اميرين احدهما من الانصار والآخر من المهاجرين، واعلان أبي بكر الذي فاز بالخلافة في ذلك اليوم عن أسفه لعدم السؤال من النبي عن صاحب الامر بعده ...

كل ذلك يوضح بدرجة لا تقبل الشك أن هذا الجيل الطليعي من الأمة الاسلامية – بما فيه القطاع الذي تسلم الحكم بعد وفاة النبي – لم يكن يفكر بذهنية الشورى؛ ولم يكن لديه فكرة محددة عن هذا النظام، فكيف يمكن أن نتصور ان النبي مارس عملية توعية على نظام الشورى تشريعياً وفكرياً، وأعد جيل المهاجرين والانصار لتسلم قيادة الدعوة بعده على أساس

---

١ – راجع في نصوص يوم السقيفة شرح النهج: ٦/ ٦–٩.

هذا النظام ؛ ثم لا نجد لدى هذا الجيل تطبيقاً واقعياً لهذا النظام أو مفهوماً محدداً عنه ؟!!

كما اننا لا يمكن أن نتصور من ناحية أخرى ،أنّ الرسول القائد ص وضع هذا النظام وحدده تشريعياً ومفهومياً ، ثم لا يقدم بتوعية المسلمين عليه وتثقيفهم به ...

٢ ـ ان النبي ص ، لو كان قد قــرر ان يجعل من الجيل الاسلامي الرائد الذي ضم المهاجرين والانصار من صحابته قيماً على الدعوة بعده ومسؤولاً عن مواصلة عملية التغيير .

فهذا يحتم على الرسول القائد ص أن يعبىء هـــذه هذا الجيل تعبأة رسالية وفكرية واسعة ، يستطيع ان يمسك بالنظرية بعمق ويمارس التطبيـــق على ضوئها بوعي ، ويضع للمشاكل التي تواجهها الدعوة باستمرار الحلول النابعة من الرسالة ، خصوصــاً اذا لاحظنــا أن النبي ص كان الذي بشّر بسقوط كسرى وقيصر ، يعلم بأن الدعوة مقبـلة على فتوح عظيمة ، وان الامة الاسلامية سوف تنظم إليهـا في غد قريب شعوب جديدة ومسـاحة كبيرة وتواجه مسؤولية توعية تلك الشعوب على الاسلام ، وتحصين الأمة من أخطار هذا الانفتاح ، وتطبيق أحكام الشريعة على الارض المفتوحة وأهل الارض .

وبالرغم من ان الجيل الرائد من المسلمين كان أنضف الاجيال

التي توارثت الدعوة واكثرها استعداداً للتضحية ، لا نجد فيه ملامح ذلك الاعداد الخاص للقيمومة على الدعوة ، والتثقيف الواسع العميق على مفاهيمها ، والارقام التي تبرز هذا النفي كثيرة لا يمكن استيعابها في هذا المجال .

ويمكننا ان نلاحظ بهذا الصدد ، ان مجموع ما نقله الصحابه من نصوص عن النبي ص في مجال التشريع لا يتجاوز بضع مئات من الاحاديث ، بينما كان عدد الصحابة يناهز اثني عشر الفاً على ما احصته كتب التاريخ وكان النبي ص يعيش مع الآلاف من هؤلاء في بلد واحد وفي مسجد واحد صباحاً ومساءاً ، فهل يمكن ان نجد في هذه الارقام ملامح الاعداد الخاص ؟

والمعروف عن الصحابة انهم كانوا يتحاشون من ابتداء النبي ص بالسؤال ، حتى ان احدهم كان ينتظر فرصة مجيء اعرابي من خارج المدينة يسأل ليسمع الجواب ، وكانوا يرون ان من الترفع السؤال عن حكم قضايا لم تقع بعد .

ومن اجل ذلك قال عمر علي المنبر : « احرج بالله على رجل سأل عما لم يكن ، فان النبي قد بين ما هو كائن »[1] .

وقال : « لا يحل لأحد ان يسأل عما لم يكن ، ان الله قد

---

١ — سنن الدرامي ١ / ٥٠ .

قضى فيما هو كائن » .

وجاء رجل يوماً الى ابن عمر يسأله عن شيء ، فقال له ابن عمر : لا تسأل عما لم يكن ، فأني سمعت عمر بن الخطاب يلعن من سأل عما لم يكن [1] .

وسأل رجل أبيّ بن كعب عن مسألة ، قال : يا بني أكان الذي سألتني عنه ؟ قال : لا . قال : أما لا ،فأجلني حتى يكون [2] .

وقرأ عمر يوماً القرآن ،فانتهى الى قوله تعالى : « فأنبتنا فيها حبا وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلا وحدائق غلباً وفاكهة وأبا »[3] . فقال : كل هذا عرفناه فما الأب ؟ ثم قال : هذا لعمر الله هو التكلف ، فما عليك ان لا تدري ما الأب ، اتبعوا ما بين لكم هداه من الكتاب فاعملوا به ، وما لم تعرفوه فكلوه الى ربه .

وهكذا نلاحظ اتجاهاً لدى الصحابة الى العزوف عن السؤال الا في حدود المشاكل المحددة الواقعة . وهذا الاتجاه هو الذي أدى الى ضآلة النصوص التشريعية التي نقلوها عن الرسول ص وهو الذي أدى بعد ذلك الاحتياج الى مصادر أخرى غير

---

١ - نفس المصدر السابق والصفحة . ٣ - عبس : ٢٨ - ٣٢ .

٢ - سنن الدارمي: ١ /٥٦ .

الكتاب والسنة ، كالاستحسان والقياس وغيرهما من ألوان الاجتهاد التي يتمثل فيها العنصر الذاتي للمجتهد الأمر الذي أدى الى تسرب شخصية الانسان بذوقه وتصوراته الخاصة الى التشريع .

وهذا الاتجاه أبعد ما يكون عن عملية الإعداد الرسالي الخاص التي كانت تتطلب تثقيفاً واسعاً لذلك الجيل وتوعية له على حدود الشريعة المشاكل التي سوف يواجهها عبر قيادته .

وقد أثبتت الأحداث بعد وفاة النبي ص أن جيل المهاجرين والانصار ، لم يكن يملك أي تعليمات محددة عن كثير من المشاكل الكبيرة التي كانت من المفروض أن تواجهها الدعوة بعد النبي ص حتى ان مساحة هائلة من الارض التي امتد اليها الفتح الاسلامي لم يكن لدى الخليفة والوسط الذي يسنده أي تصور محدد عن حكمها الشرعي ، وعما اذا كانت تقسم بين المقاتلين أم تجعل وقفاً على المسلمين عموماً . فهل يمكننا أن نتصور أن النبي ص يؤكد للمسلمين انهم سوف يفتحون أرض كسرى وقيصر ويجعل من جيل المهاجرين والانصار القيم على الدعوة والمسؤول عن هذا الفتح ثم لا يخبره بالحكم الشرعي الذي يجب أن يطبق على تلك المساحة الهائلة من الدنيا التي سوف يمتد اليها الاسلام ؟ !

بل اننا نلاحظ اكثر من ذلك ، ان الجيل المعاصر للرسول ص لم يكن يملك تصورات واضحــة محددة حتى في مجال القضايا الدينية التي كان النبي يمارسها مئـــات المرات وعلى مرأى ومسمع من الصحابة .

ونذكر على سبيل المثال لذلـك ، الصلاة على الميت ، فانهـا عبادة كان النبي ص قد مارسها علانية مئات المرات ؛ وأداها في مشهد عام في المشيعين والمصلين ، وبالرغم من ذلك يبدو أن الصحابـة كانوا لا يجـدون ضرورة لضبط صورة هـذه العبادة مادام النبي ص يؤديها وماداموا يتابعون فيها النبي فصلاً بعد فصل ، ولهذا وقع الاختلاف بينهم بعد وفاة النبي في عدد التكبيرات في صلاة الميت .

فقد أخرج الطحاوي عن ابراهـيم قال : قبض رسول الله والناس مختلفون في التكبير على الجنازة لا تشاء أن تسمع رجلاً يقول : سمعت رسول الله يكبر سبعاً ، والآخر يقول : سمعت رسول الله يكبر خمساً ، وآخر يقول : سمعت رســول الله يكبر أربعاً ، فما اختلفوا في ذلك حتى قبض أبو بكر فلما ولي عمر رأى اختلاف الناس في ذلك ، شق عليه جـداً ؛ فأرسل الى رجال من اصحـاب رسول الله ص فقال : انكم معـاشر أصحاب رسول الله ! متى تختلفون على الناس يختلفون من بعدكم ، ومتى تجتمعون على أمر يجتمع الناس عليه ، فانظروا ما تجتمعون عليه ، فكأنما أيقضهم ، فقالوا : نعم ما رأيت يا امير المؤمنين [١] .

---

١ ـ عمدة القاري: ٤ / ١٢٩ .

وهكذا نجد ان الصحابة كانوا في حياة النبي ص يتكلون غالباً على شخص النبي ص ، ولا يشعرون بضرورة الاستيعاب المباشر للاحكام والمفاهيم ما داموا في كنف النبي ص .

وكل ما تقدم، يدل على أن التوعية التي مارسها النبي ص على المستوى العام في المهاجرين والانصار لم تكن بالدرجة التي يتطلبها اعداد القيادة الواعية الفكرية والسياسية ، لمستقبل الدعوة وعملية التغيير ، وانما كانت توعية بالدرجة التي تبنى القاعدة الشعبية الواعية التي تلتف حول قيادة الدعوة في الحاضر والمستقبل .

وأي افتراض يتجه الى القول بأن النبي ص كان يخطط لاسناد قيادة التجربة والقيمومة على الدعوة بعده مباشرة الى جيل المهاجرين والانصار ، يحتوي ضمناً اتهام اكبر وأبصر قائد رسالي في تاريخ العمليات التغييرية ، بعدم القدرة على التمييز بين الوعي المطلوب على مستوى القاعدة الشعبية للدعوة والوعي المطلوب على مستوى قيادة الدعوة وامامتها الفكرية والسياسية .

٣ — ان الدعوة عملية تغيير ومنهج حياة جديد ، وهي تكلف بناء أمة من جديد واقتلاع كل جذور الجاهلية

ورواسبها من وجودها .

والامة الاسلامية - ككل - لم تكن قد عاشت في ظل عملية التغيير هذه إلا عقداً واحداً من الزمن على اكثر تقدير ، وهذا الزمن لا يكفي عادة في منطق الرسالات العقائدية والدعوات التغييرية لارتفاع الجيل الذي عاش في كنف الدعوة عشر سنوات فقط الى درجة من الوعي والموضوعية والتحرر من رواسب الماضي والاستيعاب لمعطيات الدعوة الجديدة ، تؤهله للقيمومة على الرسالة وتحمل مسؤوليات الدعوة ومواصلة عملية التغيير بدون قائد .

بل أن منطق الرسالات العقائدية يفرض أن تمر الأمة بوصاية عقائدية فترة أطول في الزمن ، تهيؤها للارتفاع الى مستوى تلك القيمومة .

وليس هذا شيئاً نستنتجه استنتاجاً فحسب ، وإنما يعبر ايضاً عن الحقيقة التي برهنت عليها الأحداث بعد وفاة القائد الرسول ص وتجلت بعد نصف قرن أو أقل من خلال ممارسة جيل المهاجرين والأنصار لإمامة الدعوة والقيمومة عليها إذ لم يمض على هذه القيمومة ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الرسالية التي تولى جيل المهاجرين والأنصار قيادتها ، تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها أعداء الاسلام القدامى ، ولكن من داخل إطار التجربة الاسلامية لا من

خارجها ، فاستطاعوا أن يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ، ويستغلوا القيادة غير الواعية ، ثم صادروا بكل وقاحة وعنف تلك القيادة ، وأجبروا الأمة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته ، وتحولت الزعامة الى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويبعثر الأموال ويعطل الحدود ويجمد الأحكام ويتلاعب بمقدرات الناس وأصبح الفيىء والسواد بستاناً لقريش ، والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية .

فواقع التجربة بعد النبي ص وما تمخض عنه بعد ربع قرن من نتائج يدعم الاستنتاج المتقدم الذي يؤكد أن إسناد القيادة والإمامة الفكرية والسياسية لجيل المهاجرين والانصار عقب وفاة النبي ص مباشرة ، إجراء مبكر وقبل وقته الطبيعي ، ولهذا ليس من المعقول أن يكون النبي ص قد اتخذ إجراءً من هذا القبيل .

الطريق الثالث

وهو الطريق الوحيد الذي بقي منسجماً مع طبيعة الأشياء، ومعقولاً على ضوء ظروف الدعوة والدعاة وسلوك النبي ص هو أن يقف النبي من مستقبل الدعوة بعد وفاته موقفا إيجابيا ، فيختار بأمر من الله سبحانه وتعالى شخصا يرشحه عمق وجوده في كيان الدعوة ، فيعده إعداداً رساليا وقياديا خاصا لتتمثل فيه المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة ، وليواصل بعده وبمساندة القاعدة الشعبية الواعية من المهاجرين والأنصار قيادة الأمة وبناءها عقائديا ، وتقويتها باستمرار نحو المستوى الذي تؤهلها لتحمل المسؤوليات القيادية .

وهكذا نجد بأن هذا هو الطريق الوحيد الذى كان بالإمكان أن يضمن سلامة مستقبل الدعوة وصيانة التجربة من الانحراف في خط نموها ، وهكذا كان .

وليس مـــا تواتر عن النبي ص من النصوص التي تدل على أنه كان يمارس اعداداً رسالياً وتثقيفاً عقائدياً خاصاً لبعض الدعاة على مستوى يهيئه للمرجعية الفكرية والسياسية ، وأنه ص قد عهد إليه بمستقبل الدعوة وزعامة الأمة من بعده فكريا وسياسيا ، ليس هذا إلا تعبيراً عن سلوك القائد الرسول للطريق الثالث الذي كانت تعرضه ، وتدل عليه قبل ذلك طبيعة الأشياء كما عرفنا .

ولم يكن هذا الشخص الداعي المرشح للإعداد الرسالي والقيادي والمنصوب لتسلم مستقبل الدعوة وتزعمها فكريا وسياسيا ، إلا علي بن ابي طالب عليه السلام الذي رشحه لذلك عمق وجوده في كيان الدعوة ؛ وانه المسلم الأول والمجاهد الأول في سبيلها عبر كفاحها المرير ضد كل أعدائها ، وعمق وجوده في حياة القائد الرسول ص وانه ربيبه الذي فتح عينيه في حجره ونشأ في كنفه وتهيأت له من فرص التفاعل معه والاندماج بخطه ما لم يتوفر لأي انسان آخر .

والشواهد من حياة النبي ص والإمام عليه السلام ، على ان النبي ص كان يعد الإمام إعداداً رسالياً خاصاً كثيرة جداً ، فقد كان النبي ص يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها ، ويبدؤه بالعطاء الفكري والتثقيف، إذا استنفد الإمام أسئلته . ويختلي به الساعات الطوال في الليل والنهار ، يفتح عينيه على

مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل الى آخر يوم من حياته الشريفة .

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي اسحاق، سـألت القاسم بن العباس ، كيف ورث علي رسول الله ؟ قـال : لانه كان أولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً .

وفي حلية الأولياء ، عن ابن عباس انه يقول : كنا نتحدث ان النبي ص عهد الى علي سبعين عهداً لم يعهد الى غيره .

وروى النسائي عن ابن عباس عن علي، انه يقول : كانت لي منزلة من رسول الله ص لم تكن لاحد من الخلائق ، كنت أدخل على نبي الله كل ليلة ، فإن كان يصلي سبح فدخلت ، وان لم يكن يصلي أذن لي فدخلت .

وروي ايضاً عن الامام عليه السلام، قوله : كان لي مع النبي ص مدخلان مدخل بالليل ، ومدخل بالنهار .

وروي النسائي عن الامام ايضا أنه كان يقول : كنت إذا سألت رسول الله ص أعطيت ، واذا سكت ابتدأني . ورواه الحاكم في المستدرك ايضاً، وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وروى النسائي عن ام سلمة أنها كانت تقول : والذي تحلف

به أم سلمة انه أقرب الناس عهداً برسول الله ص علي عليه السلام . قالت: لما كانت غداة قبض رسول الله فأرسل الى رسول الله واظنه كان بعثه في حاجة ، فجعل يقول : جاء علي ؟ ثلاث مرات ، فجاء قبل طلوع الشمس ، فلما أن جاء عرفنا ان اليه حاجة ، فخرجنا من البيت ، وكنا عند رسول الله ص يومئذ في بيت عائشة ، وكنت في آخر من خرج من البيت ، ثم جلست من وراء الباب ، فكنت أدناهم الى الباب ، فأكب عليه علي ، فكان آخر الناس به عهداً فجعل يساره ويناجيه .

وقال امير المؤمنين عليه السلام في خطبته القاصعة الشهيرة وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد وعناية النبي ص باعداده وتربيته : «وقد علمتم موضعي من رسول الله والقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني الى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه ، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ، وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ؛ وقد كنت أتبعه اتباع الفصيل لاثر أمه ، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ، ولقد كان يجاورني كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الاسلام غير رسول الله ص وخديجة وأنا ثالثهما ؛ أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة».

ان هذه الشواهد وشواهد أخرى كثيرة ، تقدم لنا صورة عن ذلك الإعداد الرسـالي الذى كان النبي ص يمارسه في سبيل توعية الإمام على المستـوى القيـادى للدعوة ، كما أن في حياة الإمام علي عليه السلام بعد وفاة القائد الرسول ص أرقاماً كثيرة جداً تكشف عن ذلك الاعداد العقائدي الخاص للإمام علي من قبل النبي ، بما تمكسه من آثار ذلك الأعـداد الخاص ونتائجه . فقد كان الامام هو المفزع والمرجع لحل أى مشكلة يستعصي حلها على القيادة الحاكمة وقتئذ ، ولا نعرف في تاريخ التجربة الاسلامية على عهد الخلفاء الأربعة ، واقعـة واحدة رجع فيها الامام الى غيره لكي يتعرف على رأي الاسلام وطريقة علاجه للموقف ، بينما في التاريخ عشرات الوقائع التي أحست القيادة الاسلامية الحاكمة فيها بضرورة الرجـوع الى الامام بالرغم من تحفظاتها في الموضوع .

واذا كانت الشواهد كثيرة على ان النبي ص كان يعد الامام اعداداً خاصاً لمواصلة قيادة الدعوة من بعده ، فالشواهد على اعلان الرسول القائد على تخطيطه هذا واسناد زعامـة الدعوة والفكرية والسياسية رسمياً الى الامام علي عليه السلام لا تقل عنها كثرة ، كما نلاحظ ذلك في « حديث الدار » و« حديث الثقلين » و « حديث المـنزلة » و « حديث الغدير » و « عشرات النصوص النبوية الأخرى » .

وهكذا وجد التشيـع في أطار الدعوة الاسلامية متمثلا

في الأطروحة النبوية التي وضعها النبي ص بأمر من الله للحفاظ على مستقبل الدعوة.

وهكذا وجد التشيع لا كظاهرة طارئة على مسرح الأحداث ، بل كنتيجة ضرورية لطبيعة تكون الدعوة وحاجاتها وظروفها الأصلية التي كانت تفرض على الاسلام أن يلد التشيع .

وبمعنى آخر كانت تفرض على القائد الأول للتجربة أن يعد للتجربة قائدها الثاني الذي تواصل على يده ويد خلفائه نموها الثوري ، وتقترب نحو إكتمال هدفها التغييري في اجتثاث كل رواسب الماضي الجاهلي وجذوره وبناء أمة جديرة على مستوى متطلبات الدعوة ومسؤولياتها .



كيف وجد الشيعة

عرفنا الآن كيف ولد التشيع ، أما كيف ولد الشيعة ونشأ الانقسام على أساس ذلك في الأمة ؟

فهذا ما سنجيب عليه الآن :

اننا إذا تتبعنا المرحلة الأولى من حياة الأمة الاسلامية في عصر النبي ص نجد بأن اتجاهين رئيسيين مختلفين قد رافقا نشوء الأمة وبداية التجربة الاسلامية منذ السنوات الأولى ، وكانا يعيشان معاً داخل إطار الأمة الوليدة التي انشأها الرسول القائد ، وقد أدى هذا الاختلاف بين الاتجاهين الى انقسام عقائدي عقيب وفاة الرسول ص مباشرة ، شطر الأمة الاسلامية الى شطرين قدر لاحدهما أن يحكم، فاستطاع أن يمتد ويستوعب اكثرية المسلمين ، بينما أقصى الشطر الآخر عن الحكم وقدر له أن يمارس وجوده كأقلية معارضة ضمن الإطار الاسلامي العام،

وكانت هذه الأقلية هي (الشيعة) .

والاتجاهان الرئيسيان اللذان رافقا نشوء الأمة الاسلامية في حياة النبي ص منذ البدء هما :

أولا - الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالدين وتحكيمه والتسليم المطلق للنص الديني في كل جوانب الحياة .

وثانياً - الاتجاه الذي لا يرى ان إيمانه بالدين يتطلب منه التعبد إلا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات ، ويؤمن بإمكانية الاجتهاد ، وجواز التصرف على أساسه بالتغيير والتعديل في النص الديني وفقاً للمصالح في غير ذلك النطاق من مجالات الحياة .

وبالرغم من أن الصحابة بوصفهم الطليعة المؤمنة والمستنيرة كانوا أفضل وأوسع بذرة لنشء رسالية ، حتى ان تاريخ الانسان لم يشهد جيلاً عقائدياً أروع وأطهر وأنبل من الجيل الذي انشأه الرسول القائد ...

بالرغم من ذلك ، من الضروري التسليم بوجود اتجاه واسع منذ كان النبي ص على قيد الحياة ، يميل الى تقديم الاجتهاد في تقدير المصلحة واستنتاجها من الظروف على التعبد بحرفية النص الديني ، كما كان هناك اتجاه

آخر يؤمن بتحكيم الدين والتسليم له والتعبد بكل نصوصه في جميع جوانب الحياة .

وقد يكون من عوامل انتشار الاتجاه الثاني (الاجتهادي) في صفوف المسلمين أنه يتفق مع ميل الانسان بطبيعته الى التصرف وفقاً لمصلحة يدركها ويقدرها ، بدلاً عن التصرف وفقاً لقرار لا يفهم مغزاه .

وقد قدر لهذا الاتجاه ممثلون جريئون من كبار الصحابة ؛ من قبيل عمر بن الخطاب الذى ناقش الرسول ص واجتهد في مواضع عديدة خلافاً للنص ، أيماناً منه بجواز ذلك ما دام يرى أنه لم يخطيء المصلحة في اجتهاده .

وبهذا الصدد يمكن أن نلاحظ ، موقفه من صلح «الحديبية» واحتجاجه على هذا الصلح ، وموقفه من الأذان وتصرفه فيه باسقاط (حي على خير العمل) ؛ وموقفه من النبي ص حين شرع متعة الحج ... الى غير ذلك من مواقفه الاجتهادية .

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول ص في آخر يوم من أيام حياته ؛ فقد روى البخارى في صحيحه عن ابن عباس ، قال : «لما حضر رسول الله ص الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب ، قال النبي : هلم اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده . فقال عمر : ان النبي ص

قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله . فاختلف أهل البيت فاختصموا ، منهم من يقول : قربوا يكتب لكم النبي كتابا لن تضلوا بعده ؛ ومنهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم : قوموا .

وهذه الواقعة وحدها كافية للتدليل على عمق الاتجاهين ومدى التناقض والصراع بينهما .

ويمكن أن نضيف اليها - لتصوير عمق الاتجاه ورسوخه - ما حصل من نزاع وخلاف بين الصحابة حول تأمير «أسامة بن زيد» على الجيش ، بالرغم من النص النبوي الصريح على ذلك ، حتى خرج الرسول ص وهو مريض ، وخطب الناس وقال : « يا أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم من تأمير أسامة ، ولئن طعنتم في تأميري أباه من قبل ، وايم الله انه كان لخليقا بالامارة ، وان ابنه من بعده لخليق بها » .

وهذان الاتجاهان اللذان بدأ الصراع بينهما في حياة النبي ص قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الامام للدعوة بعد النبي .

فالممثلون للاتجاه التعبدي وجدوا في النص النبوي على هذه الاطروحة سببا ملزما لقبولها دون توقف أو تعديل ، وأما

الاتجاه الثاني فقد رأى أنه بامكانه أن يتحرر من الصيغة المطروحة من قبل النبي ص اذا أدى اجتهاده الى صيغة أخرى أكثر انسجاماً في تصوره مع الظروف .

وهكذا نرى أن الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول ص مباشرة ، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عملياً لإطروحة زعامة الامام علي ع وقيادته التي فرض النبي الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة .

وقد تجسّد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الإولى في إنكار ما اتجهت اليه السقيفة من تجميد لإطروحة زعامة الامام علي ع وإسناد السلطة إلى غيره .

ذكر الطبرسي في الاحتجاج عن أبان بن تغلب ، قال : قلت لجعفر بن محمد الصادق ع : جعلت فداك هل كان أحد في أصحاب رسول الله أنكر على أبي بكر فعله ؟ قال : نعم كان الذي أنكر عليه اثني عشر رجلاً من المهاجرين : خالد بن سعيد بن ابي العاص ، وسلمان الفارسي ، وأبو ذر الغفاري ، والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وبريدة الأسلمي ، ومن الأنصار : أبو الهيثم بن التيهان ، وعثمان بن حنيف ، خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين ، وأبي بن كعب وأبو أيوب الانصاري .

هذه خطوط عامة عن تفسير التشيع بوصفه ظاهرة طبيعية

في أطار الدعوة الاسلامية ؛ وتفسير ظهور الشيعة كأستجابة لتلك الظاهرة الطبيعية .



وأود أن أشير قبل ختام الحديث الى نقطة ، واعتبر توضيحها على درجة كبيرة من الاهمية ، فان بعض الباحثين يحاول التمييز بين نحوين من التشيع : أحدهما التشيع الروحي والآخر التشيع السياسي ويعتقد أن التشيع الروحى أقدم عهداً من التشيع السياسي ، وأن أئمة الشيعة الامامية في أبناء الحسين عليه السلام قد اعتزلوا بعد مذبحة كربلاء السياسة وانصرفوا الى الارشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا .

والحقيقة ان التشيّع لم يكن في يوم من الأيام منذ ولادته مجرد اتجاه روحي بحت ، وإنما ولد التشيع في أحضان الاسلام بوصفه أطروحة مواصلة الامام على القيادة بعد النبي ص الفكرية وقيادته السياسية للدعوة على السواء ، كما أوضحنا سابقاً عند استعراض الظروف التي أدت إلى ولادة التشيع .

ولم يكن بالامكان بحكم هذه الظروف الذي استعرضناها أن يفصل الجانب الروحي عن الجانب السياسي في أطروحة التشيّع ، تبعاً لعدم انفصال أحدهما عن الآخر في الاسلام نفسه .

فالتشيّع إذن لا يمكن ان يتجزأ ألاّ اذا فقد معناه كأطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبي ص ، وهو مستقبل بحاجة الى المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة الاسلامية معاً .

وقد كان هناك ولاء واسع النطاق للامام علي عليه السلام في صفوف المسلمين باعتباره الشخص الجدير بمواصلة دور الخلفاء الثلاثة في الحكم ، وهذا الولاء هو الذي جاء به الى السلطة عقيب قتل عثمان ، وهذا الولاء تشيعاً روحياً ولا سياسياً ، وانما التشيّع الروحي والسياسي داخل أطاره ، فلا يمكن أن نعتبره مثالاً على التشيّع المجزأ .

كما أن الامام عليه السلام كان يتمتع بولاء روحي وفكري من عدد من كبار الصحابة في عهد أبي بكر وعمر ، من قبيل سلمان وأبي ذر وعمّار وغيرهم، ولكن هذا لا يعني أيضاً تشيّعاً روحياً منفصلاً عن الجانب السياسي ، بل انه تعبير عن أيمان أولئك الصحابة بقيادة الامام علي عليه السلام للدعوة بعد وفاة النبي ص فكرياً وسياسياً ، وقد انعكس ايمانهم بالجانب الفكري من هذه القيادة بالولاء الروحي المتقدم .

ولنعكس ايمانهم بالجانب السياسي منها بمعارضتهم لخلافة أبي بكر وللاتجاه الذي أدى الى صرف السلطة عن الامام عليه السلام الى غيره .

ولم تنشأ في الواقع،النظرة التجزيئيةالتشيّع الروحي بصورة منفصلة عن التشيّع السياسي ، ولم تولد في ذهن الإنسان الشيعي إلا بعد أن استسلم للواقع وانطفأت جذوة التشيّع في نفسه كصفة محدودة لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الأمة وانجاز عملية التغيير الكبيرة التي بدأها الرسول الكبير ص ، وتحولت الى مجرد عقيدة يطوي الانسان عليها قلبه أو يستمد منها سلوته وأمله.

وهنا نصل الى ما يقال من أن أئمة اهل البيت عليهم السلام من ابناء الحسين عليه السلام اعتزلوا السياسة وانقطعوا عن الدنيا ؛ فنلاحظ أن التشيّع بعد ان فهمناه كصيغة لمواصلة القيادة الاسلامية ، والقيادة الاسلامية لا تعني إلا ممارسة عملية التغيير التي بدأها الرسول الكريم ص لتكميل بناء الأمة على أساس الاسلام ، فليس من الممكن أن نتصور تنازل الأئمة عليهم السلام عن الجانب السياسي إلا إذا تنازلوا عن التشيّع .

غير أن الذي ساعد على تصور اعتزال الأئمة ع وتخليهم عن الجانب السياسي من قيادتهم ، ما بدا من عدم اقدامهم على عمل مسلح ضدّ الوضع القائم من إعطاء الجانب السياسي من السياسة معنى ضيقاً لا ينطبق إلا على عمل مسلح من هذا القبيل .

ولدينا نصوص عديدة عن الأئمة ع توضح أن إمام الوقت دائماً كان مستعداً لخوض عمل مسلح إذا وجدت لديه

القناعة بوجود الأنصار والقدرة على تحقيق الأهداف الإسلامية من وراء ذلك العمل المسلح .

ونحن إذا تتبعنا سير الحركة الشيعية ، نلاحظ أن القيادة الشيعية المتمثلة في أئمة أهل البيت ع كانت تؤمن بأن تسلم السلطة وحده لا يكفي ولا يمكن من تحقيق عملية التغيير إسلامياً ، ما لم تكن هذه السلطة مدعمة بقواعد شعبية واعية تعي أهداف تلك السلطة وتؤمن بنظريتها في الحكم ، وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير ، وتصمد في وجه الأعاصير .

وفي نصف القرن الأول بعد وفاة النبى ص كانت القيادة الشعبية – بعد إقصائها عن الحكم – تحاول باستمرار استرجاع الحكم بالطرق التي تؤمن بها ، لأنها كانت تؤمن بوجود قواعد شعبية واعية أو في طريق التوعية من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، ولكن بعد نصف قرن – وبعد أن لم يبق من هذه القواعد الشعبية الشيء المذكور ونشأت أجيال ماتعة في ظل الانحراف – لم تعد تسلم الحركة الشيعية للسلطة محققاً للهدف الكبير ، لعدم وجود القواعد الشعبية المساندة بوعي وتضحية .

وأمام هذا الواقع كان لا بد من علمين :

احدهما : العمل من أجل بناء هذه القواعد الشعبية الواعية

التي تهيىء أرضية صالحة لتسلم السلطة .

والآخر : تحريك ضمير الأمة الاسلامية وإرادتها ، والاحتفاظ بالضمير الاسلامي والارادة الاسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها و كرامتها للحكام المنحرفين .

والعمل الأول هو الذي مارسه الأئمة ع بأنفسهم ، والعمل الثاني هو الذي مارسه ثائرون علويون كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الاسلامي والارادة الاسلامية ؛ وكان الأئمة ع يسندون المخلصين منهم .

قال الإمام علي بن موسى الرضا ع للمأمون وهو يحدثه عن زيد بن علي الشهيد : « أنه كان من علماء آل محمّد ص غضب لله فجاهد أعدائه حتى قتل في سبيله ، ولقد حدثني أبي موسى بن جعفر ع انه سمع أباه جعفر يقول : رحم الله عمي زيداً ، إنه دعى الى الرضا من آل محمد ، ولو ظفر أوفى لله من ذلك انه قال : أدعوكم الى الرضا من آل محمد [1] .

وفي رواية أنه ذكر بين يدي الإمام الصادق ع من خرج من آل محمد ص ، فقال : لا أزال أنا وشيعتي بخير ما خرج

---

١ — الوسائل ، كتاب الجهاد .

الخارجون من آل محمد خرج وعلي" نفقة عياله [1] .

فترك الائمة ع إذن العمل المسلح بصورة مباشرة ضد المنحرفين ، لم يكن يعنى تخليهم عن الجانب السياسى من قيادتهم وانصرافهم إلى العبادة ، وإنما كان يعبر عن اختلاف صيغة العمل السياسي التي تحددها الظروف الموضوعية وعن إدراك معمق لطبيعة العمل التغييري وأسلوب تحقيقه .



- السرائر لابن ادريس .

بعض منشورات « دار الغدير »

محمد وقرآن	ناصر الدين المكارم الشيرازي
النظام المالي في الاسلام	محمد مهدي الآصفي
علي والفلسفة الالهية	العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي
المرأة في الاسلام	« «
نظرية السياسة والحكم في الاسلام	« «
ميثم التمار شهيد الايمان	المغفور له محمد حسين المظفر
الأسرة المسلمة	عدنان البكاء
الفضيلة تنتصر	بنت الهدى
صلح الامام الحسن	محمد جواد فضل الله
مناظرات بين الالهيين والماديين	محمد الصادقي

كتب تحت الطبع

دلائل الصدق	المغفور له الشيخ محمد حسن المظفر
الانسان بين القضاء والقدر	مرتضى المطهري
المناقب	لابن المغازلي الشافعي